توجيه النحاة للقراءات القرآنية، ومنهج الاحتجاج بها.

منداس عبد القادر
جامعة البليدة 2

توطـــــئة:

لقد أسهمت الدراسات النحوية التي وضعها اللغويون القدامى في فهم ما اشتملت عليه اللغة العربية من خصائص ومزايا ، وفي إدراك السَّنَنِ التي اعتادت العربُ السَّيرَ على منوالها ، وبالتالي فهم لغة القرآنِ التي نزل بها ، " فلقد كانت نشأة علم النحو ضرورة ملحة لأنه عنصر مهم في لغة القرآن التي يناط البناء العقدي والتشريعي للمجتمع الإسلامي بالضبط الكامل لمبانيها ومعانيها ، حفاظا على سلامة معطياتها ودقتها ، فاختلال هذا العنصر يؤدي إلى إبهام واختلال في ما يؤخذ من الكتاب والسنة والآثار الشارحة لهما من مقررات تصوغ الحياة الدينية للأمة، ولذا وجدنا بين علماء الطبقات التي أنشأت النحو كثيرا من القراء ، ودُكِر بعضهم في كتاب سيبويه ، وكانت مشكلات الإعراب المبكرةُ قرآنيةً ، واحتوى كتاب سيبويه 444 آية أو شطر آية تكرر كثير منها في مسائل مختلفة ." [1]

أولا / عجز النحاة أمام آيات القرآن وقراءاته:

ولقد حظيت لغة القرآن الكريم بكثير من العناية، ولغته التي أعجزت الفصحاء من العرب لا تزال تعجز الخلق جيلا بعد جيل، قال الله تعالى : { قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } (الزمر : 28) وقال { وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ }(الأحقاف :12) ، ولكن النحو لم يكن الوسيلة الكافية لاستبطان المعاني القرآنية ، فإن إسهامات النحاة وإن كانت تعد " من مظاهر الجهد النحوي بالقرآن الكريم التي تستحق الشكر ، إلا أنهم وقفوا أمام بعض آياته حيارى ، وقصرت صنعتهم النحوية عن أن تلم بما في

تلك الآيات من إعرابات، فطفقوا يوجهونها بتوجيهات لا تقف أمام النظر الدقيق ، بل تصل أحيانا إلى حد التشكيك في ضبط الآية التي أجمع القراء عليها ، وما ذلك إلا لأنها لم تطاوع في الاستجابة لقواعدهم ، ولم تَنْسقْ مع مقاييسهم . "[2]

وإذا كان تطور النحو في عصوره المتلاحقة ساعد على استمرارية اللغة العربية، بفعل التأصيل لقواعدها، حيث شكلت أعاريب بعض الآيات صورة للأنماط النحوية الدقيقة ، وأظهرت بجلاء ما وصلت إليه قضايا النحو من قدرة مدهشة، وما بلغه علماؤه من شأو تفكيري رفيع، كما تبين مقدرتهم الفائقة على التوجيه والتحليل والإحاطة بالاحتمالات.[3] إلا أن هذا التطور – وفي الوقت ذاته– كان سببا في صنع جملة من الإشكالات ، وتعقيد عدد من المسائل اللغوية ، ويتجلى ذلك في عجز بعض النحاة أمام عدد من القراءات التي تواتر نقلها، فما كان منهم إلا تقديم تلك القواعد على هذه القراءات، "والباحث المتأمل في صنيع النحاة أمام بعض الآيات، يقف مبهورا لما يرى من وجوه عديدة للتأويلات والتخريجات النحوية التي تقتضيها الصناعة ولكنها لا تصل إلى نتيجة قاطعة، مما دفعهم أحيانا إلى الشعور بالحاجة إلى رد القراءة، أو تخطئة الرواية، أو تشذيذ الآية، أو إخراجها عن المراد منها، بل والاستعانة أحيانا أخرى بشعر العرب لدعم تلك التخريجات والاحتجاج به لتقويتها"[4].

وهذه نتيجة حتمية تعاني منها جل العلوم التي أخذت منحى التقعيد العقلي والتي تأثرت بالمنطق ومقولاته، إذ مما يجدر التنويه به أن التوسع في وجوه الإعراب ليس إلاّ ضربا من النشاط الذهني الذي تمليه الصناعة ، وهذه الفروض والتقديرات التي يلجأ إليها النحاة للتفسير أو لبيان الأوجه الجائزة: لم يقل أحد منهم إنها من كلام العرب ، وسيبويه إمامهم يصرح بذلك كثيرا بأن هذا تقريب أو تمثيل ولم تتكلم به العرب(...) وإلا هل تظن أن عاقلا يفسر كلام الله على مثل:(وإن استجارك أحد استجارك) أو(كانوا زاهدين فيه من الزاهدين) أو(وإذا انشقت السماء انشقت) أو(ويعذب الظالمين أعد لهم عذابا عظيما) ."[5]

ثانيا / مظاهر تعامل النحاة مع القراءات، وأسباب ذلك:

تعددت أحوال اللغويين مع القراءات القرآنية ، لاسيما تلك التي لا تتلاءم وقواعدهم ،أولا يسايرها ما استنبطوه من كلام العرب ،ومن مظاهر مواقف النحويين في التعامل مع الآيات المخالفة لقواعدهم :

- الحكم على القراءة باللحن أو الشذوذ أو عدم الجواز .
- التشكيك في القارئ أو القراءة.
- التكلف في توجيه الآية بعيدا عن المعنى المراد منها.
- توجيهها بما يعارض القياس النحوي أو يخالفه .
- توجيهها بما لا ينطبق على نظائرها من الكلام الآخر .
- التوجيه بشيء من الدعابة بعيدا عن التقعيد النحوي . [6]

• ولا شك أن أيَّ مظهر من المظاهر إلا ويقف وراءها عدد من الأسباب والدوافع ، ومن الأسباب التي أدت إلى مثل هذه المواقف والتي أثرت سلبا على المنحى الذي يفترض أن تكون عليه الدراسات اللغوية القرآنية:

أ - الاستقراء الناقص : فلم ينقل إلينا مما دونه العرب شعرا ونثرا إلا النزر القليل ، وعليه فلا يسع النحو أن يحيط بكل ما قالته العرب وما التزمته في خطابها ، يشير د. سعيد الأفغاني إلى أن النحويين : " قواعدهم ومقاييسهم النحوية بنوها على استقراء ناقص جدا فكان أساس تلك القواعد والقوانين غير متين من الناحية النظرية على الأقل. " [7] ، وهو نقص حاصل رغم اجتهادهم في وضع القواعد وفق ما تبينوا من النصوص التي تمكَّن من حصرِها العقل البشري آنذاك . وهذا يعني أن منهجهم ليس منهجا متكاملا : " وقد كان القراء يرون بحق أن منهجهم أوثق وأصح من هذه الأصول والقواعد التي خضع لها النحاة وحاولوا أن يخضعوا لها اللغة ." [8]

ب - تعميم الحكم النحوي : وأحدَثَ هذا مع الاستقراء الناقص خللا جسيما في المنهج النحوي ، وهذا ما نبه إليه المحدثون وذلك: " أن النقد يجد في منهج النحاة وفي قواعد نحوهم ثُغَرًا عدة ينفذ منها إلى الصميم ، فهم يريدون بناء قواعدهم

على كلام العرب ، فيجمعون نتفا نثرية وشعرية من هذه القبيلة وتلك ، ومن شعر لا يعرف قائله إلى جملة غير منسوبة . يجمعون هذا إلى أقوال معروفة مشهورة ، ويضعون قواعد تصدق على أكثر ما وصل إليهم بهذا الاستقراء الناقص ، ثم يسددون هذه القواعد بمقاييس منطقية يريدون اطرادها في الكلام ، حتى إذا أتت بعضَهم قراءةٌ صحيحةُ السَّندِ تخالف قاعدته القياسية ، طعن فيها وإن كان قارئها أبلغ ممن يحتج النحاة بكلامهم . "[9] وأوجز ذلك ابن حزم بقوله : "من النحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكما لفظيا ويتخذه مذهبا ، ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرف الآية عن وجهها."[10] وعليه فليست قواعد النحاة وأقيستهم هي المستوى الوحيد للغة العربية، بل إن النحو لا يرقى أحيانا أوغالبا أمام القراءات القرآنية .[11]

ج – **عدم اعتماد القراءات القرآنية مصدرا أساسيا من مصادر اللغة** : حيث إن استدلالهم بنصوص من غير القرآن ، جعلهم يتعاملون مع بعض القراءات السبعية بالرفض أو التلحين أو التشكيك ، وإذا بهم يلبسون تلك القواعد النحوية قداسة هي أخلق بلغة القرآن الكريم، وإلا لكانت مثلا لغة " أكلوني البراغيث " لغة قوية لورودها في القرآن ؛ قال ابن حزم: "ولا عجب أعجب ممن وجد(...) لفظا في شعر أو نثر جعله في اللغة وقطع به، ولم يعترض فيه، ثم إذا وجد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاما لم يلتفت إليه ، ولا جعله حجة، وجعل يصرفه عن وجهه، ويحرفه عن مواضعه، ويتحيل في إحالته عما أوقعه الله عليه ."[12]

ولم يُغفلْ الزركشي في البرهان اعتراضات النحاة على أئمة القراءة، إذ تعقب على أحدهم فقال:" وهذا تحامل، وقد انعقد الإجماع على صحة قراءة هؤلاء الأئمة ، وأنها سنة متبعة، ولا مجال للاجتهاد فيها. ولهذا قال سيبويه في كتابه: في قوله تعالى { مَا هَذَا بَشَرًا } (يوسف 31):" وبنو تميم يرفعونه إلا من درى كيف هي في المصحف."[13] وإنما كان هذا لأن القراءة سنة مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا تكون القراءة بغير ما روي عنه ."[14]

د – **عدم استيعابهم لأمثلتها من الأساليب اللغوية الأخرى**: وهذا من نتائج الاستقراء الناقص، إضافة إلى عدم جمعهم للقراءات والاعتماد عليها بداية في بناء قواعد اللغة، فلما تم الجمع وحصل الاستيعاب مع المتأخرين أمثال أبي حيان اجتمعت الأمثلة والشواهد على نصرتها وقبولها وعدم الطعن فيها. [15] وأشار بعضهم إلى أثر القراءة الشاذة على القاعدة النحوية الذي كان محدودًا وضيقًا، لاشتمالها على قضايا نحوية مطردة وأخرى غير المطردة، والتي شاركها فيها أمثلة نادرة من القرآن والشعر، وكذا القضايا الشاذة التي لا يجوز القياس عليها، حيث نبه بعض المحدثين إلى أن أثر القراءات على القضايا النحوية المطردة بلغ 35 مسألة، وأثرها على القضايا غير المطردة بلغ 34 مسألة، أما النوع الشاذ الذي منعوا القياس عليه فقد بلغ 33 مسألة. [16]

ثالثا / مثال حول اعتراض النحاة على قراءة متواترة :

ويحسن بنا في هذا المقام التمثيل بقول أبي حيان في البحر المحيط معلقا على رد بعض النحاة لقراءة (معائش) بالهمزة من قوله تعالى {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } (الأعراف : 10) ، قال ": وقرأ الأعرج وزيد بن عليّ والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر في رواية: "معائش بالهمزة" وليس بالقياس لكنّهم رووه وهم ثقات فوجب قبوله ؛ (...) وقال الزّجاج: جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة. وقال المازنيّ: أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ولم يكن يدري ما العربية وكلام العرب التصحيح في نحو هذا .

ولسنا متعبّدين بأقوال نحاة البصرة. قال الفرّاء : ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهّمون أنها فعيلة فيشبّهون مفعلة بفعيلة. فهذا نقل من الفرّاء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه . وجاء به نقل القراءة الثقات ابن عامر وهو عربيّ صُرَاحٌ وقد أخذ القرآن عن عثمان قبل ظهور اللحن ، والأعرج والأعمش ونافع ،

وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحلّ الذي لا يجهل، فوجب قبول ما نقلوه إلينا ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا ، وأما قول المازنيّ (أصل أخذ هذه القراءة عن نافع) فليس بصحيح لأنها نقلت عن ابن عامر وعن الأعرج وزيد بن عليّ والأعمش .

وأما قوله (إنّ نافعاً لم يكن يدري ما العربية) فشهادة على النفي ولو فرضنا أنه لا يدري ما العربية وهي هذه الصناعة التي يتوصل بها إلى التكلم بلسان العرب فهولا يلزمه ذلك إذ هو فصيح متكلم بالعربية ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء وكثير من هؤلاء النحاة يسيئون الظنّ بالقرّاء ولا يجوز لهم ذلك." [17]

فهذا الوجه من القراءة منعه بعض النحاة لأنه على خلاف الفصيح من كلام العرب ، ويكفيهم ثبوت القراءة به ليكون من جملة الكلام العربي الفصيح ، ولكن تكلفهم في تطبيق تلك القواعد أنساهم ذلك .

يقول د. حسني محمود:" ولكن النحاة العرب اعتمدوا إلى جانب لغة القرآن والحديث ولهجة قريش ، لهجات أخرى متعددة مثل لهجات قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وطيء والحارث بن كعب من أجل تقعيد قواعد اللغة ووضع نظامها النحوي . وهم وإن حصروا عملهم ضمن حقبة زمنية محددة ثم أخضعوا هذا العمل لمعايير خاصة في الانتقاء بحيث لم يكونوا يقبلون الحجاج إلا بأهل البادية ، فلم يأخذوا قط عن الحضر أو عن سكان البراري ممن كانوا يسكنون أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم من حولهم ، فإنهم على الرغم من ذلك ، عقدوا في قواعد اللغات واللهجات ، الأمر الذي أثار الخلاف في الرأي وخلق المدارس النحوية المتعددة ." [18]

رابعا / الاعتراض على القراءات غير المتواترة :

هذه بعض الأسباب التي دعت إلى مثل تلك المواقف ، وإذا كان العلماء قد انتقدوا النحاة في طعنهم في القراءات المتواترة ، فليس الشأن كذلك في غيرها من القراءات ، حيث قال أحد الدارسين : " وإذا كانت القراءة من غير المتواتر والصحيح فلا حرج عندي إذا ردها أحد علماء النحو أو اللغة ، إن كان يمتلك

الدليل الثابت . أما إذ كانت القراءة القرآنية متواترة ، قد رويت بالأسانيد الصحيحة التي لا تقبل الشك ، فقد نُقلت آراء جهابذة العلماء في قبولها وعدم جواز ردها وهي حجة على النحو لا العكس ، بعد بيان الأدلة على فصاحتها ، فهذه القراءات قد روتها الأمة جيلا بعد جيل ، عن أفصح الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولأنه قرأ بها وأقرأها لأصحابه ، بالصورة التي وصلت إلينا متواترة كما هي ." [19]

ونقل ابن الجزري في منجده قول أبي عمرو الداني:" والأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية ، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية ، إذا ثبت عنهم لم يرده قياس عربية ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة، فلزم قبولها والمصير إليها." [20] وهذا الكلام يقضي معناه بالمخالفة جواز وإمكانية النظر والتمحيص في القراءات التي لم تجتمع فيها تلك الأوصاف.

وقد وقف النحاة من القراءات الشاذة موقفًا نحويًا " التزموا فيه بالمقياس، فقبلوا منها ما وافقهم ورفضوا ما تأبى عليهم، ولم يكن ثمة ما يميز في هذه المواقف بين بصري وكوفي أو بغدادي خلافًا لما كان ذائعًا بين الباحثين، فقد كان الخليل وسيبويه وأبو عبيدة معمر بن المثنى البصريون يسلمون بوجوه كثيرة منها، وكان الفراء وابن مجاهد والطبري الكوفيون ينكرون بعضها". [21]

خامسا / التجويزات النحوية والقراءات :

ذكرت فيما سبق أن النحاة قد يقع لهم اعتراض على بعض القراءات، لظنهم أنها لا تُساير مقاييس النحو فيسعون إلى التشكيك في صحتها نقلا وفي تغليط رواتها؛ ولكن هل يعني ذلك أنهم وضعوا قراءات من عند أنفسهم لم تنقل أصلا عن القراء لمجرد تأييد قواعدهم النحوية ودعم توجهاتهم اللغوية، وهوما قد نتوهمه من تجويزاتهم اللغوية في قراءة آي القرآن. وللإجابة عن هذا الإشكال يحسن بي أن أُؤسِّس بمقولة لأحد الباحثين يقول فيها:" إن ما يذكره النحاة من إمكانات النص وقابليته لأداءات مختلفة: الهدف منه التعليم لا العدول عن الصورة

المنقولة، لِما ذُكر أنهم كانوا يصدرون في تجويزاتهم المتنوعة – سواء ما تعلق منها بالتراكيب أو الأبنية أو الأصوات – عن مقتضيات لغوية وأقيسة نحوية، أساسها كلها ما تكلمت به العرب وجاءت به الرواية."[22]

وفي بادئ الأمر كان خوف العرب من اللحن ، هوما دعاهم إلى وضع علم النحو ودرسه بهدف تعليمه للناس وللأجيال، وأصبحوا بذلك يتعلمون لغتهم تعلُّما، فبعد اختلاط العرب مع الأعاجم وبانتشارهم وتوزعهم على حواضر البلاد، بدأت تفسد لدى أجيالهم ملكة اللغة وتضعف سليقتها، وأنتج هذا الامتزاج اللغوي ثنائيةً في اللغة : لغة رسمية، ولغة للحديث والتفاهم اليومي.[23] بيد أنه مع تلاحق العصور" لم يَعُد اللحن يقوم على الاختلاف بين الاستعمال اللغوي القديم والحديث في مجاري التعبير الحي، بل على الاصطدام الشنيع مع قواعد النحو. "[24]

ومن ثَمَّ كانت التجويزات النحوية إحالة على الممكن في اللغة لا على الوارد في القراءة لأن علمهم باللغة أوسع من علمهم بالقراءة، والدليل على هذا أن النحويين قد ينفون عن الوجه الذي يجوِّزُونه في اللغة أن يكون قد قرئ به، وعند التحقيق يثبت العكس من ذلك[25]. فمثلا في مشكل إعراب القرآن لابن أبي طالب تسعة مواضع يجزم فيها بأنها ليست أوجها مقروءا بها، وقد جاءت القراءة بخمسة منها ، فإذا تعذرت الإحاطة بكل القراءات على القراء مثل مكي، فهو مع النحاة أشد تعذرا .[26]

كما استعمل النحاة عبارات من التحفُظ مثل: يجوز في غير القرآن أن يقال كذا، ولو كان في غير التنزيل لقيل كذا، وما شابهه ليذكِّروا القارئ" أن التجويزات مجالها اللغة فحسب واللغة أوسع من أن تحصر في نمط تركيبي معين ، ونموُّها واستمرارها في كثرة إمكاناتها السائغة ، فالوجه الممكن إذا لم تنته به الرواية إليهم حملوه على سبيل الجواز اللغوي فقط."[27] قال مكي: "وإنما نذكر هذه الوجوه _ أي الجائزة لغة _ ليُعلم تصرُّف الإعراب ومقاييسه لا لأن يقرأ به. فلا يجوز أنم يقرأ إلا بما

روي وصح عن الثقات المشهورين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، ووافق خط المصحف. "[28]

وكثير من الأوجه التي أجاز النحويون القراءة بها قد وردت بها القراءات، فلو علمها النحاة لاحتجوا بها على التجويزات. وهم يعلمون أن الجائز اللغوي أوسع من المسند المرويِّ، فإذا جوزوا القراءة بوجه لم يسندوه رواية فليس فيه تجرؤ على القرآن والقراءات ولا دعوة منهم للقراءة بالجائز لغة. [29]

ومع ذلك فما يهمنا تسجيله ها هنا، هو أنه لا يمكننا اتهام النحويين بأنهم يبيحون القراءة بما يجوز في اللغة دون رواية، فتشبثهم بسُنِّيَة القراءة لا يقل عن تشبُّث القراء. وعـرضُـهُم لكثير من الأوجه الجائزة في أثناء مدارستهم للقرآن الكريم إنما كان لغاية التعليم على ما أملَتْه طبيعة فـنِّهم. [30] والإحاطة بجميع القراءات متواترها وشاذها، أمر لا يتهيأ لأحد، ولو كان من القراء أنفسهم، فكيف بالنحويين، وإذا كان من النحاة الأوائل قرأةٌ فليس معناه أنهم كانوا محيطين بجميع الأوجه القرآنية فعلمهم بها غير شامل ولا مستقصى، وليس ذلك بعيب فيهم، بل هو أمر اقتضته طبيعة علم القراءة . [31]

سادسا / الاحتجاج للقراءات وبالقراءات:

هنالك فرق بين الاحتجاج للقراءات القرآنية والاحتجاج بها، فلكل وجهته من الاحتجاج .

أ _ فالأول أي الاحتجاج للقراءات ، يُقصَد به : " الكشف عن وجه القراءة في نحوها أو صرفها أو لغتها، وتسويغ الاختيار، وذلك بأساليب اللغة الأخرى من قرآن وشعر ولغات، ولا يراد به توثيق القراءة أو إثبات صحة قاعدة نحوية فيها." [32] فهو مبحث في علم القراءة لا يرمي نقد الإسناد والرواة بل " الغاية من الاحتجاج للقراءة إنما هو للكشف عن الوجوه النحوية، وتبيين مراتبها لا الاحتجاج بمعنى الإثبات كما خيل لبعضهم." [33]

ولأجله رجح بعضهم أن فائدة هذا الاحتجاج : الوصول إلى كشف القراءة لا إلى توثيقها أو تقويتها فالعودة إلى النحو وغيره إذًا ما هي إلا لبيان القراءة وتوضيحها [34] ولذلك يقول ثعلب: "إذا اختلف الإعرابان في القراءات لم أفضل إعرابًا على إعراب فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى" [35] .

ب _ أما الثاني وهو الاحتجاج بالقراءة فهو من قبيل الاستدلال بالقراءة في التفسير والنحو والفقه على مسألة تعرِض للباحث في واحد من هذه العلوم، أو غيرها مما له تعلُّقٌ معنوي. ولا يظن ظانٌّ أن النحاة استغنوا تماما عن الاحتجاج بالقراءات ، بل إنهم احتجوا بها ، كما احتجوا بعموم كلام العرب ، فلا يوجد كتاب من كتب النحو المعتمدة إلا وفيه استدلال بالقراءات قل أو كثر، ويرجح بعضهم أن ما نقل من طعن بعض النحويين في عدد من القراءات ، محمول على أن القراءة لم تثبت لديه بما تقوم به الحجة ، أو ظنَّ اجتهاداً خطأً هذه القراءة أو أنها وهمٌ من أحد رواتها . [36]

بل إن احتجاج النحاة بالقراءات لم يقتصر على المتواتر من القراءات فحسب بل تعداه إلى الشواذ منها، فمواقفهم من ذلك كانت:" علمية منهجية تتفق ومواقفهم من سائر الأساليب اللغوية، فقد جعلوها مصدرًا من مصادر احتجاجهم إلى جانب القراءات المشهورة والشعر وأقوال العرب وأخضعوها لمقاييسهم العامة وربطوا احترامهم لها بمدى انقيادها أو تأبيها على تلك المقاييس، فما اتفق منها معهم اعتدوا به وجاهروا في الانتصار له، وما خالفهم احتالوا له وأولوه أو أسفروا عن طعن فيه." [37]

وهذا الرأي محتمل جدا حيث قال أحد الباحثين مؤكدا ذلك : "إن كتب النحو واللغة والتفسير وغيرها قد تضمنت نصوصا كثيرة في الطعن على الأئمة القراء ، الذين تواترت قراءاتهم ، وارتضتها الأمة بالقبول ، وقد أحصيت أكثر من خمسين موضعا في الرد على قراءات سبعية متواترة ، قرأ بها الأئمة الأعلام ." [38] وهذا

يعني أن حسن الظن بأهل النحو إن تحقق في بعض الأحوال فإنه لا يتأتى في كل الحالات .

سابعا / المصادر الأساسية للاحتجاج للقراءات القرآنية :

تعد مؤلفات الاحتجاج من أهم مصادر علم القراءة ، لما فيها من تأصيل وتأسيس لمهمات المبادئ التي التزمها القراء في قراءاتهم ، ومن أهم ما وضع في ذلك :

1 _ معاني القراءات ، لأبي منصور الأزهري (ت 370 هـ)

2 _ إعراب القراءات السبع وعللها ، لابن خالويه (ت 370 هـ)

3 _ الحجة في القراءات السبع ، له أيضا .

4 _ الحجة للقراء السبعة ، لأبي علي الفارسي (ت377هـ)

5 _ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني (ت 392 هـ) .

6 _ حجة القراءات ، لابن زنجلة (ت 403 هـ) .

7 _ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب (ت 437 ه).

8 _ شرح الهداية ، لأبي العباس المهدوي (ت 440 هـ) .

9 _ مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني ، لأبي العلاء الكرماني (ت 563 هـ) .

10 _ الموضح في وجوه القراءات وعللها ، لابن أبي مريم نصر الشيرازي (ت 565 هـ) .

11 _ إعراب القراءات الشواذ ،لأبي البقاء العكبري (ت 616 هـ). [3 9]

وقد تواطأت آراء كثير من الباحثين على أن دوافع تلك الكتابات في باب الاحتجاج للقراءات، تتلخص في دافعين بارزين الأول هو توضيح أركان القراءة

الصحيحة، والثاني: الدفاع عن القراءات، خصوصا المتواترة، ردا على متوهمي اللحن فيها. [40]

ولكن هذا الرأي لم يسلم من الانتقاد فثمة من أثبت خلاف ذلك ، وقال بوقوع كتب الاحتجاج هي الأخرى في عين ما وقعت فيه كتب النحو، فهذين الدافعين بحاجة إلى شيء من التدقيق ، " أما الأول فإن كتب الاحتجاج لم تُـعنَ بنقد أسانيد القراءات التي تعرض لها ، وهي حينما تحتج برسم المصحف لا تفعل ذلك لتوضيح موافقة القراءات لمرسوم الخط ، بل لترجح قراءة على أخرى . أما الآخر فهولا يفسر سوى الاحتجاج لمشكل القراءات ، مما تكلم فيه بعض اللغويين وغيرهم ، وهونزر إذا قيس بما وراءه ، مما لم يختلف على صحته لفظا ومعنى . [41] "

ثامنا / المنهج المتبع لدى المحتجّين للقراءات :

يبدو أن الخطوط العامة لمنهج كتب الاحتجاج في عرض الجوانب الصوتية واللغوية للقراءات هي أكثر وضوحا واتساقا من طريقة أهل النحو في تعاملهم مع ذلك ، وتتركز هذه الخطوط العامة فيما يلي : [42]

1 ـ في التنظير والتطبيق تنحو كتب الاحتجاج في الأصل منحى تطبيقيا يشرح معاني القراءات ويبين وجه كل منها ، ويتخلل ذلك وقفات تنظيرية تعالج القاعدة وتحتج لأصول القراء واختلافهم فيما يكثر دوره في القرآن وتجمعه ضوابط مطردة في الإدغام والإمالة وغيرها .

2 ـ وهي في طرق الاستدلال تتأرجح بين التجربة الذاتية ـ وهي نادرة تنهل مما سبق إليه النحاة ـ ؛ وبين استثمار علم العروض الذي يبدو جليا في الحجة للفارسي .

3 ـ أما التعليل ، فهو مادي حين يتعلق بالجوانب الصوتية لأنه يحيل إلى الحس ، وهو يقوم على مبدأ الاستخفاف ودفع الاستثقال في الغالب الأعم ، وقد خرج أحيانا إلى التكلف والتعقيد .

4 _ وقوع الخلاف بين المحتجين للقراءات تأثُّرا بخلافات النحاة ، وهو يسير في الجانب الصوتي لطابعه المادي وتقَصِّي الاستخفاف في الأحكام . كما حدث الخلاف بين القراء والنحاة كذلك، وفي ذلك كلمة مهمة للمهدوي في مسألة : تحقيق الهمزتين قال : " والقراء أحذق في نقل هذه الأشياء من النحويين وأعلم بالآثار ، ولا يلتفت إلى من قال : إن تحقيق الهمزتين في لغة العرب شاذ قليل ، لأن لغة العرب أوسع من أن يحيط بها قائل هذا القول ، وقد اجتمع على تحقيق الهمزتين أكثر القراء : وهم أهل الكوفة وأهل الشام وجماعة من أهل البصرة ، وببعضهم تقوم الحجة . "[43]

5 _ أما المصطلح في الاحتجاج فطابعه : قرائي – لغوي، يمزج مصطلحات العلمين كالسكت واللحن الخفي والجلي، وياءات الإضافة والياءات الزوائد، إلا أنها تتسم بالتعدد من جهة اللفظ والمعنى ، كالتعبير عن الإمالة بالكسر والإضجاع والبطح ولعل سبب هذا التعدد اختلاف الجهات التي وضعت المصطلح القرائي مع تحَدُّرِه من أزمنة متباينة.

6 _ اعتماد كتب اللغة مصادرَ خارجية للاحتجاج وعمادها كتابان : الكتاب لسيبويه ، ومعاني القرآن للفراء ، ومصادر داخلية وعمادها الحجة للفارسي .

7 _ غلبة الطابع التحليلي على التركيبي ، أي العناية بالجزئيات والتطبيقات دون أن يتبع ذلك استخلاص كليات عامة ، فالتحليل تفكيك الموضوع إلى عناصره البسيطة والتركيب إعادة تأليفها ، وهما عمليتان ذهنيتان لا يستغني عنهما العقل في جدلية المقدمة والنتيجة أو التنظير والتطبيق .

ومن خلال ذلك ينكشف لنا اتساق منهج الاحتجاج للقراءات وترابطه مع العناصر الأساسية للقراءات القرآنية، فهو فيما يبدو للباحث أوفق من منهج أهل النحو ،على كل حال، في تعاملهم مع القراءة القرآنية ، وهذا يجعلنا نفضل طريقة أهل الاحتجاج على طريقة النحاة، للأوصاف المذكورة آنفا. فعلى دارس القراءات وخصائصها اللغوية واللهجية: أن يحقق التكامل في دراسته، ضمانا

لدقتها، بين كتب القراءات وكتب الاحتجاج لها وكتب التفسير ومصادر اللغة والأدب" [44]

الهـــوامـــش:

---

[1] – جبل (د. محمد حسن)، دفاع عن القرآن الكريم: أصالة الإعراب ودلالته على المعاني، مصر – بسيون ، البربري للطباعة الحديثة، ط2 ، 1999م : ص58.

[2] السلمي (د.عبد الله بن عويقل) ، موقف النحويين من الآيات المعضلة إعرابا : مقال في (مجلة الأحمدية) العدد الخامس رمضان 1424هـ ، تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث ، دبي ، (ص363 –398): ص364.

[3] ينظر : السلمي (د.عبد الله بن عويقل) ، موقف النحويين من الآيات المعضلة إعرابا : ص 366.

[4] نفسه : ص364–365.

[5] الفارسي أبو علي، كتاب الشعر، تحقيق د. محمود الطناحي ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط 1 . 1408ه : ص 34.

[6] ينظر: موقف النحويين من الآيات المعضلة إعرابا : ص 365.، وذكر هناك لكل مظهر أمثلة تؤيده من كتب اللغة.

[7] سعيد الأفغاني ، في أصول النحو ، بيروت : دار الفكر . (د . ط) : ص60 .

[8] الراجحي (د.عبده)، اللهجات العربية في القراءات ، الرياض ، مكتبة المعارف ، ط الأولى ، 1999م : ص 104.

[9] سعيد الأفغاني ، في أصول النحو: ص 31 .

[10] ينظر: نفسه : ص 32.

[11] ينظر: عبده الراجحي ، اللهجات العربية : ص105.

[12] ابن حزم الأندلسي(أبو محمد علي بن ، ت :456ه) ، الفصل في الملل و النحل ، القاهرة : المطبعة الأدبية ، 1320هـ : 3/ 192.

[13] سيبويه(أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت : 180ه) ، الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، بيروت ، دار الجيل ، ط الأولى .1996م : 1/ 59 .

[14] الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله ، ت : 794 هـ) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت ، دار المعرفة للطباعة و النشر ، 1972م : 1/ 321 .

[15] ينظر : جطل (د. مصطفى) ، موقف النحاة من القراءات القرآنية الشاذة وأثرها في النحو العربي . مقال في (مجلة بحوث) ، العدد السابع ، 1985م . تصدر عن جامعة حلب ، سوريا .(ص115–124.) ص123.

[16] ينظر : جطل مصطفى، موقف النحاة من القراءات القرآنية الشاذة : ص 124 .

[17] أبو حيان (محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، ت : 745ه) :تفسير البحر المحيط ، بيروت : دار الفكر للطباعة و النشر ، ط الثانية، 1978م : 4/ 271–272.

[18] محمود (د. حسني) ، اللهجات العامية .. لماذا و إلى أين : مقال في (مجلة اللسان العربي)، المجلد العشرون ، 1982م . تصدر عن المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، المغرب (ص17 – 30): ص22 .

[19] المحيمد (د. ياسين جاسم) ، تلحين النحويين للقراء : مقال في (مجلة الأحمدية) العدد الخامس، رمضان 1424هـ . تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث ، دبي، (ص 399 – 454.): ص 401.

[20] ابن الجزري (محمد أبو الخير شمس الدين الدمشقي ، ت: 833هـ) ، منجد المقرئين و مرشد الطالبين ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1، 1999م : ص65 .

[21] جطل مصطفى، موقف النحاة من القراءات القرآنية الشاذة وأثرها في النحو العربي: ص120–121 .

[22] النوري (د. محمد علي) : الأحكام النحوية و القراءات القرآنية ، جمعا و تحقيقا و دراسة : من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف . ، المملكة العربية السعودية : جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية قسم الدراسات العليا ، 1410هـ 1990م : ص 29 .

[23] ينظر : محمود (د. حسني) ، اللهجات العامية .. لماذا و إلى أين : ص23 .

[24] فوك (يوهان) : العربية – دراسات في اللغة و اللهجة و الأساليب ، ترجمة: عبد الحليم النجار، القاهرة : مطبعة دار الكتاب العربي ،1951م : ص169 .

[25] ينظر : النوري (د. محمد علي) ، الأحكام النحوية و القراءات القرآنية: ص 40.

[26] ينظر : النوري (د. محمد علي) ، الأحكام النحوية : 41 .

[27] نفســه : ص 20 .

[28] مكي (ابن أبي طالب حموش القيسي ، ت : 437ه) : مشكل إعراب القرآن ، تحقيق : حاتم صالح الضامن . دمشق : دار البشائر ، ط الأولى .2003م : 1 / 9 .

[29] الأحكام النحوية و القراءات القرآنية : ص 39 – 40 .

[30] ينظر : نفســه: ص 44 .

[31] ينظر : الأحكام النحوية و القراءات القرآنية : ص 38 .

[32] الصغير، محمود ابن أحمد، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي : ص206 .

[33] نفســه: ص206 .

[34] ينظر: د. إدريس حامد محمد ،القراءات الشاذة : أحكامها وآثارها ،(بحث على الانترنت : موقع الألوكة . نت)

[35] السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، ت : 119هـ) ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . صيدا – لبنان ، المكتبة العصرية ، 1988م : 1 / 83 .

[36] ينظر: بازمول (د. محمد بن سالم) ، القراءات القرآنية و أثرها في التفسير و الأحكام، مؤسسة الرسالة ، ط 1 . 1996م : 1/ 249 .

[37] جطل مصطفى، موقف النحاة من القراءات القرآنية الشاذة وأثرها في النحو العربي: ص116 .

[38] د.ياسين جاسم محيمد ، تلحين النحويين للقراء : ص 420.

[39] ينظر : النيرباني (د. عبد البديع) ، الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات ، دمشق : دار الغوثاني للدراسات القرآنية ، ط الأولى .1427هـ 2006م : ص6.

[40] ينظر : الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات : ص14.، و أحال الكاتب على بعض من رأى بذلك : مثل د. عبد الفتاح شلبي (في بحثه الاحتجاج للقراءات) ، و د.عبد العزيز الحربي (في كتاب: توجيه مشكل القراءات) و د.حازم سعيد حيدر(محقق كتاب الهداية للمهدوي)

[41] الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات : ص14

[42] ينظر : د. عبد البديع النيرباني ، الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات : ص 293 و ما بعدها ؛ و د. مصطفى جطل ، نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني و الثالث للهجرة : ص445 و ما بعدها .

[43] المهدوي (أبو العباس) ، شرح الهداية ، تحقيق : د.حازم سعيد حيدر ، الرياض : مكتبة الرشد ، ط الأولى .1995م : 2/ 327

[44] النادري (د.محمد أسعد) ، فقه اللغة : مناهله و مسائله ، بيروت : المكتبة العصرية ، ط 1 . 2005م: ص 171 .: ص 173 .

*** قائمة الببليوغرافيا :**

- الأفغاني (د. سعيد) ، في أصول النحو ، بيروت : دار الفكر .
- جبل (د. محمد حسن) ، دفاع عن القرآن الكريم : أصالة الإعراب و دلالته على المعاني ، مصر - بسيون ، البربري للطباعة الحديثة ، ط2 ، 1999م .
- ابن الجزري (محمد أبو الخير شمس الدين الدمشقي ، ت: 833هـ) ، منجد المقرئين و مرشد الطالبين ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1، 1999م
- بازمول (د. محمد بن سالم)، القراءات القرآنية وأثرها في التفسير والأحكام، مؤسسة الرسالة، ط الأولى.1417هـ 1996م .
- جطل(د. مصطفى)، نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني و الثالث للهجرة، منشورات جامعة حلب، 1981م .
- ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، ت:456هـ)، الفصل في الملل والنحل، القاهرة: المطبعة الأدبية، 1320هـ .
- أبو حيان(محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، ت: 745هـ)، تفسير البحر المحيط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ط الثانية، 1978م .
- الراجحي(د.عبده)، اللهجات العربية في القراءات،الرياض، مكتبة المعارف، ط الأولى، 1999م .
- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله ، ت : 794 هـ) ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . بيروت ، دار المعرفة للطباعة و النشر ، 1972م .
- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت : 180هـ) ، الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، بيروت ، دار الجيل ، ط الأولى .1996م .
- السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، ت : 119هـ) ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . صيدا - لبنان ، المكتبة العصرية ، 1988م.
- الفارسي أبو علي ، كتاب الشعر ، تحقيق الطناحي (د. محمود محمد) ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط الأولى . 1408هـ
- فوك (يوهان) : العربية - دراسات في اللغة و اللهجة و الأساليب ، ترجمة: عبد الحليم النجار ، القاهرة : مطبعة دار الكتاب العربي ، 1951م .

- مكي (ابن أبي طالب حموش القيسي ، ت : 437هـ) ، مشكل إعراب القرآن ، تحقيق : حاتم صالح الضامن . دمشق : دار البشائر ، ط الأولى .2003م .
- المهدوي (أبو العباس) ، شرح الهداية ، تحقيق : د.حازم سعيد حيدر ، الرياض : مكتبة الرشد ، ط الأولى .1995م .
- النادري (د.محمد أسعد) ، فقه اللغة : مناهله و مسائله ، بيروت : المكتبة العصرية ، ط الأولى . 1425هـ 2005م .
- النوري (د. محمد علي) : الأحكام النحوية و القراءات القرآنية ، جمعا و تحقيقا و دراسة : من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف ، المملكة العربية السعودية : جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية قسم الدراسات العليا ، 1410هـ 1990م .
- النيرباني (د. عبد البديع) ، الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات ، دمشق : دار الغوثاني للدراسات القرآنية ، ط 01 .1427هـ 2006م .

المقالات :

- جطل (د. مصطفى) ، موقف النحاة من القراءات القرآنية الشاذة وأثرها في النحو العربي ، مقال في :
(مجلة بحوث جامعة حلب) ، العدد السابع ، 1985م . ص115– 124.
- السلمي (د.عبد الله بن عويقل) ، موقف النحويين من الآيات المعضلة إعرابا : مقال في (مجلة الأحمدية) العدد الخامس رمضان 1424هـ ، تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث ، دبي ، ص363 - 398.
- محمود (د. حسني) ، اللهجات العامية .. لماذا و إلى أين : مقال في (مجلة اللسان العربي)، المجلد العشرون ، 1982م . المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر ، المغرب ، ص17 - 30.
- المحيمد (د. ياسين جاسم) ، تلحين النحويين للقراء : مقال في (مجلة الأحمدية) العدد الخامس، رمضان 1424هـ . تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث ، دبي، ص 399 - 454.